

## السكون والحركة في « أين ورد الصباح »

على كل ليس اقاريء ، أي قاريء ، بحاجة لأن يكون ملما بالنحو الموسيقي حتى يكشف ذلك اتبايسن او التعاكس الذي يوحى بتكامل الصورة الشعرية بل الانسانية للشاعر ولتعبيره . ها هي الايات الاولى من القصيدة الاولى في انديوان تكشف عن البناء الاساسي لشخصية الشاعر وشعره ، عما تكلمنا عنه من السكون والحركة وتكاملهما :

« وانت  
هبطت عند مشارف الظلمات  
تحف بك النوارس  
كل نورسة ملاك  
في النوم جئت  
وعند حاشية الرمال وقفت .. »

ان التباين الظاهر بين الكوكب ( رمز الانبعث . والقصيدة مهداة الى نبيه ) وبين مشارف انظلمات ، بين سكون الليل وبين حركة النوارس والملائكة ، بين النوم رمز السكون وبين المجيء دلالة الحركة ، بين الرمال رمز الموت وبين لسة الملاك ( وقتت ) رمز الاحياء ، يتردد ليس في انحاء هذه القصيدة وحسب بل في كل ديوان عبدالامير معلية . كما ان البيت الاخير في القصيدة يكشف عن الامر بصورة اوضح واجلى :

« وكان في الاحداق  
هوى متخثر  
لما طلعت  
وقاض منك الماء .. »

ان عبارة « الهوى المتخثر » تكفينا وحدها للدلالة على ما نقول . هوى متخثر يفيض منه الماء . يفيض منه

لا ادري اذا كان الامر مقصودا . لكن ليس محض صدفة ان يكون عنوان ديوان شعر عبدالامير معلية مسكوبا في سؤال . كما لا نظنه محض صدفة محتوى السؤال ولا فحواه : « أين ورد الصباح » .

اتخيله طفلا - هكذا برز امامي من خلال ابيانه - في قلبه وعي الراشدين ، في قلبه ادراك اليقين ان الاماني ليست صادقة على الدوام ، في قلبه الاسى على عالم لا يدري من اي طرف يمسك به . لا يدري كيف يسأله .

ويتحول ديوان الشعر الى سؤال كبير . كما ان الشعر العربي ، اكثره ، في هذه المرحلة ، سؤال كبير .

وبين السؤال - الاستفهام - والاسى هناك كل المشاعر والعواطف : « .. نبكي .. من الحب نبكي .. ومن فرح الناس نبكي .. ومن وجع القدس نبكي .. ونرسم بغداد .. نبكي .. ونبكي ونبكي .. »

يتحول الشاعر الى تمثال جوال . في ظاهره الجمود ( كجمود تفاسيم تماثيل المآسي الجليلة ) وفي باطنه العذاب . ويتحول شعره الى نوع من السكون الذي لا يدري اي من الناظرين اليه كم من الحركة ، كم من الام المخاض ، من تمخضات الاسى والفرح ، تعتمل وراء ، تحت ، خلف تلك القشرة ، ذلك السطح الساكن الهاديء الجامد .

ولم اشعر بالحاجة لان اعرف تمام المعرفة قوانين العروض او بالاحرى مبادئ التقطيع ودقائق انتفعيلات كما حدث لدن قراءتي « أين ورد الصباح » . ذلك اني اقتنعت ان هالة السكون ( السكون الذي تولده المعاني والسكون الذي توحى به الموسيقى ) لا بد انها تلف في طواياها حركة موسيقية هائجة وفوارة .

نخبت كل الامال ، عندما يبكي الشاعر ، تتحرك اعماق  
السكون من جديد ، يتمع بعض الهوى المتخثر ، ينبس  
شيء من الماء :

« لكنك تسمع طرقا عند الباب .. وصوتا  
يخفت .. يخفت .. يخفت ..  
عقبة آت  
عقبة آت  
آت  
آت عقبة  
آت .. »

الموسيقى هنا في انسجام كامل مع المعنى ، الوحشة ،  
الوحدة ، انقصر بمعنى يؤس النفس ، الانفلاق ، الجمود ،  
الدهشة امام العالم وتحولاته ، الإمل والحلم بكل اغاصيرهما  
الموجعة ، الايمان بكل توتراته هي التي تتفاعل كلها متعاكسة  
ومتكاملة في قصائد عبدالامير معلقة . وآمل ان اتمكن في  
المستقبل القريب ، او ان يتمكن غيري ، من اكتشاف  
الموسيقى التي توازي على مستوى الاسلوب تلك الحركات  
التي اشرنا اليها على مستوى المحتوى . ولا اقول اني  
ارجو ان تصعد الحركة الموجودة في شعر المعلقة السى  
سطح السكون لتظهر امام الجميع ، بل اقول اني ارجو ان  
تندفق قصائده المقلبة بزخم يحمل هذه المعادلة الى اقصى  
حدودها . ولن يهم بعدها الا يعرف القاريء السطحي ان  
الهدير العظيم ليس الا موسيقى ذلك النهر الذي يبسود  
وكأنه ساكن المياه ..

روما

« الماء » - الحياة - الفعل ، في اللحظة المناسبة ، لحظة  
« الطلوع » . تماما مثل الشرارة التي لا تشتعل الا في  
لحظة التقاء الفيمتين . قد لا يكون في هذا البيت  
رينن خطابي وحماسي ، قد لا يكون بيتا من تلك التي  
تلهب الايدي بالتصفيق والحناجر بالهتاف ، شأن تلك التي  
تمتلئ بها ساحات الوطن العربي المسكين ، لكنه من الابيات  
القليلة التي سمعتها والتي اظن انها تعبر بصدق  
وعمق عن معنى الانبعاث كما يفهمه « الكوكب » الذي  
وضعت القصيدة تمجيذا لشأنه : وكان في الاحداق  
هوى متخثر ..

هناك عبارات اخرى في القصيدة تتردد ، عبر  
حركات مماثلة ، في قصائد الديوان الاخرى . لناخذ  
مثلا كلمة « الفقراء » . منذ المرة الاولى التي يستعملها  
معلقة نشعر ان للكلمة رينا مثل ذلك الذي نحسه في  
ايات الحلاج ، او اذا اردنا البقاء في هذا العصر ، في  
ايات البياني او حتى السياب . الفقراء بمعنى الاطفال ،  
المعذبين ، الساكين بالطبع ، اصحاب « الثياب المزقة » ،  
« الوجه المشقق » ، « الوجه المحفوف بالاعطار » ،  
« الرهائن » ، « البؤساء » ، « ناس الازقة ومدن القمار »  
.. الخ .. انها عبارات مأخوذة من القصيدة الاولى لكنها  
تتردد باشكال مختلفة ، لتدل على معنى واحد ، في كثير  
من قصائد « أين ورد الصباح » .

هناك قصيدة اخرى اعتقد ان حركتها تكشف عن  
حركات ومعاني وموسيقى كثير من القصائد الاخرى ، كما  
انها تعطينا « مفتاحا » آخر من مفاتيح سلم معلقة  
وشخصيته الشاعرية والانسانية . اتكلم عن قصيدة  
« ممرات عقبة بن نافع » . فهناك الواقع ، فزع سكونه ،  
قحطه ، يتعكس مع روعة الحلم بكل عنفوان بأسه ، وقوة  
حلولة ، ثم جمود الواقع من جديد والذي يتعكس هذه  
المرّة مع وقع الامل الذي يتخافت بعد ان حل طارقا  
ليتلاشى بين طيات الواقع . هناك في البدء الساحة  
العارية والشجر اليابس والحزن وشخير الجرحى  
والنداء : « يا عقبة .. الساحة عارية .. » . ثم يحل  
الحلم : فينشق البحر ويركز عقبة فيه سيفه ، يجيء  
السيف ، هناك دق على ابواب العالم ، الخيل ، البحر ،  
الجند المنتصرون تضيق بهم طرق العالم ، الساحة  
الضاحية طول الليل . ومن ثمة يعود الواقع ،  
يتلاشى الحلم : « هل مررت حقا من هنا ؟ » ( اليس هو  
الذي سأل أين ورد الصباح ؟ ) . لكن الساحة أقفرت ،  
بنات الحي اختفت من شوارع السويس ( السويس رمز  
الصحوة ، التي تبدو الان بعد سنين قليلة مجرد حلم غاب ) .  
وهكذا تعود « اصوات الورق اليابس والحزن ؟ » ويحاصر  
العري ، عري الساحة ، عقبة ، والبحر يعود خاليا ..  
لكن وعندما « الاسواق تفرق في الماء الأسن ، والدم ،  
والاضواء انطفأت .. » ، عندما تنطفئ كل الاضواء ،

قريبا

## الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال

غسان كنفاني

تأليف

الدكتورة رضوى عاشور

منشورات دار الآداب